

# شاعر السمون زهير ابن أبي عامر للدكتور عبد القادر الرباعي

(جامعة اليرموك / الأردن)

ما زال الشعر الجاهلي يشغل الدارسين والمهتمين بالفن عموماً ،  
وذلك لما له من تميز في الاشراق والبساطة مع العمق والشمول . وهو  
ككل فن بدائي ممتاز يشكل ، بجداره ، الاصول الأولى للفن الشعري العربي  
الأصيل كله .

اما أعلامه فيُنظر إليهم على أنهم الفلاسفة الأول الذين ابتكروا  
المعاني وشققوها بقدرتهم الذهنية ، وباخلاصهم في الوصول الى حلول  
مقنعة لمسألة الانسان والوجود .

وزهير واحد من اعلام الشعر الجاهلي ، بل هو واحد من المبرزين  
فيه : فهو لهذا يستحق اهتماماً مستمراً ودراسة متجددة ، لأن مثل هذه  
الدراسة وذلك الاهتمام قادران على اكتشاف عناصر جديدة تضاف الى تراث  
هذا الشاعر الخالد .

سأتعرض لزهير في الصفحات التالية من زاويتين : ادرس في  
اولاها زهيراً الانسان : اصوله ومروعه ، ثم سماته الخلقية والمسلكية ،  
عنى أساس ان لهذا دوراً كبيراً في تشكيل فكره والاهتمامات الشعرية عنده ؛  
كما ادرس في ثانيتهما زهيراً الشاعر ، بهدف الوقوف على قدراته الفنية  
التي جعلته شاعراً متميزاً في خصائصه ومذهبه .

هو زهير ابن ابي سلمى ( بضم السين ) ( ١ ) . واسم ابي سلمى  
- والده - ربيعة بن رياح بن قرعة بن الحارث، من بني مزينة ( ٢ ) . وأكد  
كعب بن زهير نسبه في مزينة بقوله ( ٣ ) :

هَمْ الْأَصْلُ مِنِّي حَيْثُ كُنْتُ وَإِنِّي      مِنْ الْمَزِينِينَ الْمَصْفِينَ بِالْكَرَمِ

ومزينة احدى قبائل مضر ، فهي منسوبــــــــــــــــة  
- كما يقول ابن الكلبي - الى مزينة بنت كلب بن  
وبرة بن ثعلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، التي كانت  
عند عمرو بن أد بن طائفة بن مضر بن نزار من معد بن عدنان ؛ ولم تلد  
مزينة لعمرو غير عثمان واوس ، وهذا الاخير هو الجد الاصل لزهير ( ٤ ) .

وذكر عن طريق آخر ان مزينة هي ام عمرو ابن اده وليس زوجته ( ٥ ) .

اما ابن سلام فيجعل مزينة واحدا من اجداد ربيعة والد زهير ( ٦ ) .

وعلى كل حال فزهير مزني النسب، لكنه ولد في بني عبداللهم غطفان،  
لان والده كان مع اهل بيته في هؤلاء القوم حتى عرف بهم ونسب اليهم •

---

١ - البغدادي : خزنة الادب ( ط . دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ ) ٢ / ٣٢٢ وورد فيها  
انه جاء في الصحاح : « ليس لي العرب سلمى ( بضم السين ) غيره » .

٢ - الاصفهاني : الاغانى ( ط . دار الكتب المصرية ) ١٠ / ٢٨٨ .

٣ - السكرى : شرح ديوان كعب بن زهير ( ط . دار الكتب المصرية ) / ٦٧

٤ - ثعلب : شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ( ط . دار الكتب المصرية ) / ٢٣٠

٥ - الاغانى : ١٠ / ٢٨٨

٦ - الجبهي : طبقات فحول الشعراء ( ط . دار المعارف . د.ت ) / ٢٢

وقد ذهب بعض الباحثين واهماً الى انه منهم ( ٧ ) . وكان بعض اهل العلم من غطفان يدّعون انه منهم، ويشككون في صحة ادّعاء كعب السابق في انه من مزينة ( ٨ ) .

أما انضمام ابي سلمى ، والد زهير ، الى بني غطفان وبقاؤه فيهم، نسبه — كما تقول اكثر الروايات ( ٩ ) — ان ابا سلمى هذا كان قد خرج مع خاله اسعد ابن الغدير، وابن خاله كعب، وبعض من بني مرة للاغارة على طيء ، فأصابوا نعماً كثيراً وأموالاً؛ فرجعوا حتى انتهوا الى ارضهم ، ارض بني مرة ، فطلب ابو سلمى من خاله وابنه ان يفردا له سهواً من الغنيمة ، فأبيا عليه ومنعاه حقه ، فكفّ عنها حتى اذا كان الليل أكره امه على الارتحال معه من ارضهم، وقد قال في ذلك :

لتعدون إِبِلٌ مُخَيَّسَةٌ      من عند سعدٍ وابنه كعبٍ  
الآكلين صرِيحَ قومِهما      أكلَ الحباري بُرْعَمَ الرُّطَبِ (١٠)

واتجه الى قبيلته مزينة فلبث فيهم حيناً ، ثم أقبل بمزينة مغيراً على احواله من بني غطفان . ولما ابتعد المزيون عن ديارهم وأشرفوا على ديار غطفان، تطايروا عنه راجعين، وتركوه وحيداً، فقال معتبراً :

---

٧ — ابن قتيبة : الشعر والشعراء ( ط . دار المعارف ١٩٦٧ ) ٨٦/١ وما بعدها .

٨ — طبقات فحول الشعراء / ٩٢ . وورد على لسان ثعلب في شرح ديوان زهير ص ٨٦ ان بني عبد الله بن غطفان يقولون، هو منا إلا انه يكذب ادعاهم ويعده باطلا .

٩ — الاغانى ٢٩١/١ .

١٠ — الحباري : طائر يقع على الذكر والانثى، ويضرب به المثل في البلاء والحق فيقال (أبلمن الحباري)

من يشتري فرساً خيراً غزوها وأبث عشيـرةً ربها أن تُسهلا

ثم أقبل حين رأى ذلك من مزينة حتى دخل في أخواله من بنسي  
مرة، ومفي بني عبدالله بن غطفان منهم ، وقد كان هؤلاء يسكنون (الحاجر)  
في نجد ( ١١ ) .

فعلى هذا يكون الغطفانيون أخوالاً لوالد زهير، وليسوا أصولاً له كما  
زعم بعض الباحثين. أما أمّ زهير فكل ما نعرف عنها أنها من غطفان ، من  
بني مرة بن سعد بن ذبيان ( ١٢ ) ، وأنها أخت أو ابنة أخ للشاعر الجاهلي  
الكبير بشامة بن الغدير . وكان زهير يعجب بشعره ويدعوه بالخال (١٣) .

وذكر حماد أن بشامة هذا كان أشعر غطفان في زمانه ، وكان رجلاً  
مقعداً حازم الراي كثير المال . ولم يكن له ولد ؛ جمع ثروته من حزم  
رايه، إذ كانت غطفان إذا أرادوا الغزو أتوه فأثروه واستشاروه وصدروا عن  
رايه ، فإذا انصرفوا قسموا له مثلها يقسمون لأفضلهم ، فلما حضره الموت  
جعل يقسم ماله في أهل بيته وبين أخوته ، فأتاه زهير فقال : يا خاله ، لو  
قسمت لي من مالك ؟ قال : قد والله يا ابن أخت قسمت لك أفضل من ذلك  
وأجزله . قال : ما هو ؟ قال : شعري ورثتيه . فمن أين جئت بهذا الشعر؟  
لعلك ترى أنك جئت به من مزينة ، وقد علمت العرب أن حصاتها وعيين  
مائها في الشعر هذا الحي من غطفان . (١٤) والحدث في هذه الرواية — إن

---

١١ — الأغاني : ٢٠٩/١٠ . وشوقي صيف : العصر الجاهلي ( ط . دار المعارف ، الطبعة  
السادسة ) / ٣٠٠ .

١٢ — وكان أبو سلمى تزوج إلى رجل من بني سهم بن مرة، أو نهر بن مرة، يقال له الغدير .  
انظر شرح ديوان زهير / ٥٥ والأغاني ٣٩٠/١٠ .

١٣ — جاء في شرح ديوان زهير ص ٢٢٥ أن بشامة عم لأمّ زهير، لكن صاحب الأغاني يذكر في  
ج ٢١٢/١٠ أنه خال زهير. أما ابن سلام فقد نص في طبقات فحول الشعراء / ٥٦٤ على  
أن زهير ابن أخته .

١٤ — الأغاني ٢١٢/١٠ وشرح ديوان زهير ٢٢٥ .

كان صحيحا — يدلّ على تأثير بشامة في زهير، وعلى أن زهيراً كان شاعراً  
معجبا به، مما دعا بشامة إلى الاعتزاز بأنه امتداده الفني .

ويظهر أن والدته زهير تزوجت بعد وفاة أبيه ؛ فقد ورد في الأخبار  
أن أوس بن حجر كان فحل مضر في الشعر، حتى نشأ النابغة وزهير  
فأخلاه ، وكان زهير راويته، وكان أوس زوج أم زهير ( ١٥ ) .

لم يترك زهير الحاجر في نجد ، أرض أخواله بعد موت والده، بل ظل  
فيها هو وأهل بيته الذين لا تعرف منهم سوى أخيه، وكان يدعى أوسا ، وهو  
أخوه من أمه الغطفانية ( ١٦ ) . وأخته الخنساء التي عاشت إلى ما بعد  
موته، حيث نظمت فيه مرثية حزينة معبرة ( ١٧ ) .

أما زهير فقد تزوج إلى أخواله ؛ تزوج كبشة بنت عمار بن عدي  
ابن سحيم، أحد بني عبد الله بن غطفان، فهي أم ولده ( ١٨ ) ؛ ويبدو أنها  
كانت الزوجة الثانية بعد ( أم أوفى ) زوجته الأولى التي أحبها كثيرا ، لكن  
الذي دفعه إلى زواج كبشة عمم أم أوفى ( ١٩ ) أو أنها ولدت لـه  
ومات أولادها جميعا ( ٢٠ ) .

لم يرح هذا الزواج أم أوفى فدبت فيها الغيرة وآذت زهيراً كثيرا، مما  
أضطره إلى طلاقها وهو كاره، ثم ندم على ذلك وقال ( ٢١ ) :

---

١٥ — طبقات فحول الشعراء / ٨١ .

١٦ — شرح ديوان زهير / ٥٥ .

١٧ — المصدر السابق / ٣٦٦ .

١٨ — المصدر نفسه ٢٢٦ ، ٢٢٥ .

١٩ — الموجز في الأدب العربي وتاريخه ( وضع لجنة من الأساتذة بالإنظار العربية ، دار  
المعارف بلبنان ١٩٦٢ ) ١ / ١٧٩ .

٢٠ — الاغانى ١٠ / ٣١٢ والخبر منقول عن ابن الاعرابي .

٢١ — شرح ديوان زهير / ٢٤٢ .

لَعَمْرُكَ وَالْخَطُوبُ مُغَيَّرَاتٌ      وفي طول المعاشرة التَّقَالِي

لقد باليت مظعن أم أوفى      ولكن أم أوفى ما تُبالِي

ومن الطبيعي أن يؤثر استمرار هذا الحب لأم أوفى على علاقته بكبشة، زوجته الجديدة . لقد واجهته باحساس المرأة : برمت كثيرا بفتور مشاعره نحوها فعاتبته عتاباً مرأه ذكرته فيه بواجب الزوج تجاه امراته التي تخلص لبيتها وتقوم بواجبها . أمأ وزوجة ؛ وهذا واضح في أبياته التالية ( ٢٢ ) :

وقالت أم كعب لا تُزرننا      فلا والله ما لك من مزار

رايتك عبتني وصددت عني      فكيف رايت عرضي واصطباري

فلم أفسدُ بنيك ولم أقرب      إليك من الملمات الكبار

ويدافع عن نفسه بجواب مقتضب حمله بيته :

اقيمي أم كعب واستقرّي      فإتّك ما نزلت بها بداري

لقد اكد لها أن الذي يحكم معاملته لها هو شعور الزوج الذي يستشعر مسؤوليته بضرورة العمل على توفير الأمان لزوجه ما دامت في داره تقوم بمهامها جيدا .

أما مسألة الحب فليس لها أن تكلفه بها ، ذلك لأن الحب لا يفرض على الإنسان فرضاً . ولعل موقف زهير هذا يعكس لنا مفهوم الناس في عصره للزواج والحب على حد سواء ؛ فليس الزواج لتحقيق عاطفة الحب دائماً، وإنما الزواج في كثير من حالاته للانجاب والعناية بشؤون الحياة العائلية والمنزلية فحسب .

وعلى أية حال فقد أنجبت له كبشة هذه ثلاثة أبناء ذكورا، هم كعب

وبجير وسالم (٢٣)؟ أما سالم فمات في حادث شؤم ينقله الرواة على النحو التالي : كان سالم هذا جميل الوجه حسن الشعر، فأهدى إليه رجل بُردين، فلبسهما وركب فرسا خيارا، فمَرَّ بامرأة من العرب في مكان ماء يقال له النِّتَاءُ، فقالت : ما رأيت كاليوم قط رجلا ولا بردين ولا فرسا أحسن مما أرى ، فما مضى قليلا حتى عثر به الفرس، فاندقت عنقه، وانشق بُرداه، وكُسرت عنق فرسه ؛ فقال زهير يرثيه ويشير الى الحادثة :

رأَتْ رجلاً لاقى من العيشِ غبطةً      واخطأه فيها الامورُ العظائمُ  
 وشبَّ له فيها بُنُونٌ وتوبعت      سلامةُ اعوامٍ له وغنائيمُ  
 وعندي من الايام ما ليس عنده      فقلتُ لها مهلاً فإنكِ حالمُ  
 لعلكِ يوماً ان تُراعي بفاجعٍ      كما راعني يوم النِّتاءِ سالمُ (٢٤)

إن في الابيات تذكيراً بأن السرور لا يدوم ، وبأن على الانسان دائماً ان يتهيأ لاستقبال الفواجع لان الدنيا في تقلب مستمر . ونحن على اية حال لا ندري مدى الصدق في قصة مقتل سالم، لكن الثابت لدينا ان زهيراً فجع بابنه هذا فجعة عظيمة جعلته يقف في الابيات السابقة عند حالين متناقضين : حال من مُدَّت له الدنيا جبل السلامة والغنى ، وحال من بُلِّتته بالمصائب وفجعته بأبنائه . فالشعور بالأسى العميق كان حتما وراء ابراز تناقض الدنيا السحيق .

أما ولداه كعب وبجير فلحقا الاسلام واسلما \* اسلم بجسير اولا وتمنّع كعب، بل قال ابياتا يؤنب فيها بجيرا على اسلامه، ويعرض بالاسلام والرسول . قال ( ٢٥ ) :

٢٢ - العباسي : معاهد التنصيص ( المطبعة البهية ١٣١٦ هـ ) ١١٠/٢

٢٤ - الاغني : ٢١٣/١٠ وما بعدها ثم شرح ديوان زهير / ٢٤١

٢٥ - شرح ديوان كعب بن زهير / ٣ وما بعدها و ( ونب ) كَوَيْل ، تقول وَيْبٌ وَوَيْبٌ لك .

الا ابلغن عني بجيرا رسالة  
 فهل لك فيما قلت بالخيْفِ هل لك  
 سُقِيتَ بكاسٍ عند آل محمدٍ  
 فأنهلك المأمونُ منها وعلَّكَ  
 وخالفت أسباب الهدى وتبعتهُ  
 على أي شيءٍ ويَبَّ عُيرِكَ دَلَّكَ

فبلغ رسول الله شعره هذا فتوعده ونذر دمه، فكتب إليه اخوه بجير يحذره ويدعوه الى القدوم على الرسول وعلان التوبة والاسلام . وطمانه بأن محمدا عليه السلام لا يقتل احدا جاءه تائبا . ففعل ذلك كعب وقال قصيدة جلييلة القاها بين يدي الرسول الكريم ، فقبل توبته وعفا عنه، وكساه بردا اشتراه منه معاوية بعشرين الف درهم .

هذا وتذكر بعض المصادر ان اسلام كعب قد أعلن بعد بعثة الرسول مباشرة، وذلك تحقيقا لوصية والده قبل وفاته، وهي تورد على هذا روايتين :

احدهما أن زهيرا رأى في منامه وفي اواخر عمره ، ان آتيا اتاه فحمله الى السماء حتى كاد يمسكها بيده، ثم تركه فهوى الى الأرض . فلما حضره الموت قصَّ رؤياه على ولده كعب ثم قال : إني لا اشك انه كائن من خير السماء بعدي ، فان كان فتمسكوا به وسارعوا اليه . ثم توفي قبل المبعث بسنة ؛ فلما بعث رسول الله خرج اليه ولده كعب بقصيدته ( بانث سعاد ) واسلم ( ٢٦ ) . وثانيتها ان زهيرا رأى في منامه ان سيبا تدلى من السماء الى الأرض وكان الناس يمسكونه ، وكلما اراد ان يمسكه تقلص عنه؛ فأوله نبي آخر الزمان ، فانه واسطة بين الله والناس ، وان مدته لا تصل الى زمن مبعثه ، فأوصى بنيه ان يؤمنوا به ( ٢٧ ) . واعتقد ان هاتين الروايتين موضوعتان، وان الخبر الاول المشفوع بأبيات شعرية لبجير هو اقرب الى التصديق منهما . والذي يدفني لهذا الاعتقاد ، الامتعال الواضح للرؤية

٢٦ - خزنة الادب ٢ / ٣٣٥ .

٢٧ - المصدر السابق ٢ / ٣٣٦ .

من اجل التدليل على تنبؤ بعض الناس بالنبوة قبل وقوعها • ولربما استفاد واضعها من التقوى التي عرف بها زهير في الجاهلية كما سيأتي .

ومن اخبار زهير أيضا ان كانت له ابنة اسمها ( وبرة ) وانها كانت

شاعرة فعندما قال زهير :

أرادت جواراً بالرئيسِ فصدّها      رجالٌ قُعودٌ في الدجى بالمعابِلِ  
كان مدهدى حنظلٍ حيث سومتُ      بأعطانها من جرّها بالجحافلِ

فقال زهير من يجيز هذا ؟ فقالت وبرة : يا ابتاه أنا اجيزه وانشدت :

جدودٌ فلتٌ بالصيفِ عنها جحائسها      فقد غرزتُ أطباؤها كالمكاحلِ (٢٨)

## - ٢ -

ترسم لنا الاخبار وشعر الشاعر صورة جميلة لزهير ؛ فهو من النفر الذين كانوا يحاسبون انفسهم كثيراً ليقتربوا من الخير، ويتعدوا عن الشر؛ ولهذا استقام خلقه ، وباعد بينه وبين الموبقات، كالخمر والميسر والأزلام (٢٩) .

لقد تساوت نفسه وابتعدت عن تدني المجتمع الجاهلي وتساقطه في الحضيض ؛ وبذلك اقترب من الايمان • وفي شعره أبيات تشير الى انه كان قريبا من الايمان حقا فهو - مثلا - يؤمن بأن هناك إلهها يتدبر الكون ويحاسب على الاعمال قال (٣٠) :

والمالُ ما خَوَّلَ الإلهُ فلا      بُدُّ لهُ انْ يَحُوزَهُ قَدْرُ  
والإنمُّ من شَرِّ ما يُصَالُ بِهِ      والبرُّ كالغَيْثِ نَبْتُهُ أُمْرُ

٢٨ - شرح ديوان زهير / ٢٤٥ .

٢٩ - جواد علي : الفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ( دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة ببغداد ١٩٧٦ ) ٦٧١/٤ .

٣٠ - شرح ديوان زهير / ٢١٤ .

وهو — كما يبدو في شعره ايضا — يؤمن بالحساب والعقاب ، وبأن

اعمال الانسان مرصودة ومحفوظة بكتاب مدخور (٣١) :

يُؤخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ      لِيَوْمِ حِسَابٍ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَضُ بِهِم

لقد كان ذا خلق جميل، مشدود برباط الايمان دائما؛ ذلك لانه يرى ان

الانسان قادر على اكتساب خلق حميد اذا ما سعى للتعلق بالخير الذي

يريده الاله ان يعم الكون والناس (٣٢) :

عَوَّدْتَ قَوْمَكَ : إِنَّ كُلَّ مُبْرَزٍ      مَهْمَا يُعَوِّدُ شِيْمَةً يَتَعَوِّدُ

كَرْمًا وَبِرًّا لِلَّهِ وَشِيْمَةً      تَعْفُو عَلَى خُلُقِ الْمُسِيءِ الْمُفْسِدِ

وقد بلغ من ايمانه انه خشي عقوبة الله لانه هجا بني عليم بن خباب

بدون حق، وكان يقول : « ما خرجت في ليلة ظلماء إلا خفت ان يصيبني الله

بعقوبة لهجائي قوما ظلمتهم (٣٣) » . ولقد اعتقد بعض الباحثين انه كان

خاضعا لتأثير النصرانية، كما عده بعضهم نصرانيا؛ لكن يبدو ان الراي الذي ذهب

اليه بروكلمان صواب ، فهو يعتقد بأن تأثير النصرانية كان واقعا في الجزيرة

العربية؛ لكننا لا يجوز لهذا ان نعد زهرا من النصارى \* (٣٤). وكان عادلا

يحب العدل ، ويدعو دائما الى اعادة الامور لنصاب الحق؛ ولهذا بارك عمل

كل من هرم بن سنان والحارث بن عوف، اللذين تحملا دياب القتلى ، واصلحا

بين الحيين المتخاصمين : عيس وذبيان؛ بعد حرب دامت اربعين عاما .

يَمِينًا لِنِعْمِ السَّيْدَانِ وَوَجِدْتُمَا      عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ

٣١ — المصدر السابق / ١٨ .

٣٢ — المصدر نفسه / ٢٧٧ .

٣٣ — الاغاني ١٠ / ٢٠٩ وشرح ديوان زهير / ٥٦ .

٣٤ — كارل بروكلمان : تاريخ الالف العربي ( ط . دار المعارف بمصر د . د . ) ١ / ٩٥ .

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَمَا تَفَانُوا وَدَقُّوْا بَيْنَهُمْ عَطْرًا مَنَشِمًا (٣٥)

ورايه في تلك الديات انها اخذت بغير حق لان الذي تحمّل دفعها لا ذنب له سوى حبه ان يسود الصفاء بدل الشر :

لُعْمُرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاحُهُمْ دَمُ ابْنِ نَهْيِكَ أَوْ قَتِيلِ الْمَثَلِمْ  
فَكَلَّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْطَلُونَهُ عُلَالَةَ الْفِي بَعْدَ الْفِي مَصْتَمِ  
تَسَاقُ السِّ قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةٌ صَحِيحَاتُ مَالٍ طَالَعَاتٍ لِمُخْرَمٍ (٣٦)

إنه يستغل هذه الحادثة غير المنطقية لحث المجتمع على رؤية الخطأ في نظامه الاجتماعي؛ فلو كان العدل هو الذي يسيره لما احتاج الى ان يقبل هذا الامر الغريب .

إن مطلب العدالة ربما نما مع الشاعر، خاصة وان احواله كانوا قد ظلموا والده ظلما دفعه الى تصرفات حادة جدا، كما مر بنا سابقا . وانني اعتقد ان حادثة والده التي كانت السبب المباشر في توطئه بأرض احواله الى الابد ، كانت مؤثرة جدا في نفسية زهير وفكره وسلوكه ، ولهذا اصبح السلام والعدالة مطلبه الاساسي في الحياة والوجود الانساني كله .

ولهذا كان اليفا جدا لمن عرفهم واختلط بهم، مهبا كانت مستوياتهم الاجتماعية ، وعلى اية صفة كانت علاقتهم به . والمثل الرائع الذي يستأهل التوقف هنا قصته مع راعيه ( يسار ) : كان الحارث ابن ورقاء الصيداوي، من بني اسد، اغار على بني عبد الله بن عطفان، فغنم فاستاق ابل زهير وراعيه يسارا (٣٧) مما دفع زهيرا ان يجاهد طويلا لاسترداد راعيه، حيث

٢٥ - شرح ديوان زهير / ١٤ ومنشم امرأة تبيع العطور وقيل : من التنشيم في الشر .

٢٦ - المصدر السابق / ٢٥ وما بعدها . العلالة : الزيادة هنا . مصتم : تام . المخرم : القنية في الجبل .

٢٧ - الاغني / ١٠ / ٢٠٧ - ٢٠٩ .

قال قصيدة يهجو بها الحارث بن ورقاء وقومه، ويهدده بغيرها ان لم يعد يسارا سالمًا، ومطلع القصيدة (٣٨) :

تَعْلَمُ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَاسِيٌّ      يُنَادِي فِي شِعَارِهِمْ يَسَارُ

ويبدو ان الحارث قد تأثر بأقوال زهير فعزم على اعادة يسار ، لكن قومه نهوه وحالوا بينه وبين رغبته، فبعث زهير فيهم قصيدة يهجوهم ويمدح الحارث ويشجعه، ويهيب به ان لا يستمع اليهم . ويبدو أنه نجح في ذلك كما يقول (٣٩) :

ابْلُغْ لَدَيْكَ بَنِي الصَّيْدَاءِ كُلَّهُمْ      أَنَّ يَسَارًا أَنَا غَيْرَ مَغْلُوبٍ  
وَلَا مَهَانَ وَلَكِنْ عِنْدَ ذِي كَرَمٍ      فِي حِبَالٍ وَفِي الْعَهْدِ مَأْمُورٍ

من الملاحظ في هذه القصائد ان زهيراً لم ينشد استرداد شيء من امواله ، لكنه كان شديد الحرص على ان يعود اليه ( يسار ) فقط ؛ وهذا يدل على الالفة المتأصلة في طبع هذا الرجل، وعلى الوفاء الذي فطر عليه ايضا . فيسار مجرد راع بسيط، لكن اختلاطه بزهير وُلد في ذات الشاعر مشاعر جميلة خاصة ومالاً بدافع منها حتى يسترد راعيه المخلص .

هذا وفضلا عن وفائه السابق الذكر لهم، مدحه لاهله (٤٠) تحقيقا لهذا الوفاء ، عرف عنه شدة وفائه لزوجته ( ام اوفى ) ؛ فلقد ظل يذكرها بأحسن ما تذكر به أنثى بالرغم من نشوزها وانفصالها عنه ؛ وقد أدى به هذا الوفاء الى مواقف صعبة مع زوجته الجديدة ، لكنه في علاقته بهذه المرأة الجديدة اثبت أيضا انه رجل طبع على الالفة وحسن المعشر، فحين عاتبته

٣٨ - شرح ديوان زهير / ٢٠٠ .

٣٩ - المصدر السابق / ٢٠٨ .

٤٠ - انظر ميجه اسنان والد زهير في ديوانه / ١٩٢ ، ٢٦٨ ، ٢٩٢ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ورتائه اباه / ٢٢٤ .

على استمرار تعلقه بأم أوفى — زوجته القديمة — لم يفكر ذلك، بسـل  
ذهب في صراحته الى حد أن عرفها موقعها منه، فهي ليست أكثر من امرأة  
تزوجها للانجاب ، وهو معها يقوم بواجبات الزوج على أكمل وجه، كما مر  
بنا سابقا .

وكان زهير متعففا، يترفع عن الماديات في علاقاته دائما ؛ لقد ظهر ذلك  
جلياً في تعامله مع ممدوحيه، وخاصة هرما ؛ فلقد أكثر زهير من مدحه حتى  
حلف هرم ألا يمدحه زهير إلا اعطاه، ولا يسأله إلا اعطاه، ولا يسلم عليه إلا  
اعطاه عبدا أو وليدة أو فرسا ؛ فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ،  
وكان اذا مر به في ملاقال : « عموا صباحا غير هرم وخيركم استثنيت (٤١) » .

والى جانب هذا كان زهير سيدا كثير المال ؛ فقد أغناه هرم ثم آل اليه  
نصيب من مال خاله بشامة بن الغدير، كما يذكر صاحب الأغاني (٤٢) ؛  
وكان كريما يصرف ماله فيما يراه واجبا . روي أن زيد الخيل بن المهلهل  
الطائي تمكن من بجير فأخذه وهو لا يعرفه، ولما عرف أنه ابن زهير حملته  
على ناقته وخلق سبيله، فأتى بجير أباه فأخبره خبر زيد وما فعله ، فأرسل  
زهير بفرس كميت كان لكعب من كرام الخيل الى زيد ، وكان كعب غائبا  
فلما جاء انكر على والده ذلك وقال : كأنك أردت أن تقوي زيدا على قتال  
غطفان، فقال زهير : هذه إبلي فخذ ثمن فرسك وازدد عليه ؛ وقد عنفت  
كعبا زوجته فقالت : أما استحييت من أبيك في سنه وشرفه أن ترد هبته ؟  
وقد اثر هذا الموقف في زيد الخيل فقال :

فلولا زهير أن أكدر نعمة لقارعت كعباً ما بقيت وما بقى (٤٣)

٤١ — معاهد التنصيص ٢ / ١١٠ .

٤٢ — الأغاني ١٠ / ٣١٢ .

٤٣ — أبو علي القالي : نيل الأمالي ( طبعة مصطفى اسماعيل يوسف بن دياب ، الطبعة  
الثالثة ) / ٥٣ وما بعدها . وشرح ديوان كعب بن زهير / ١٢٦ وما بعدها .

ويقال ان زهيرا مات قبل البعثة بقليل. ويحدد بعضهم وفاته فيجعلها قبل البعثة بسنة واحدة (٤٤) ، اما بروكلمان فيقول : ان « الراجح انه مات قبل ظهور النبي بزمن طويل (٤٥) » وهناك رواية تجعل وفاته بعد البعثة وتزعم ان الرسول عليه السلام مرّ به وهو شيخ فقال : اللهم اعزني من شيطانه (٤٦) ؛ وهي رواية مشكوك فيها على اية حال ه هذا وقد رثته اخته الخنساء بأبيات جيدة تقول فيها (٤٧) :

فلا يغني توقّي المرء شيئا      ولا عتدُ التميم ولا الغضارُ  
اذا لاقى منيته فامسى      يساق به وقد حُقّ الحذارُ  
ولاقاه من الايام يوم      كما من قبل لم يخذلُ قدارُ

وهكذا انتهت حياة شاعر عاش للخير، واتخذ من شعره اداة لنشره وتمكينه في مجتمع كثر فيه الجهل والظلم والشر .

- ٣ -

لزهير ديوان شعر طبع عدة طبعات (٤٨) ، ولعل اجودها طبعة دار الكتب التي اعتمدت على رواية ثعلب، وهي الطبعة التي اعتمدها في دراستي

٤٤ - شرح ديوان زهير / ٥٦ وخزانة الادب ٢/ ٣٣٥ .

٤٥ - تاريخ الادب العربي ١/ ٩٥ وانظر ايضا تاريخ الادب العربي لفالينسو ( ط . دار المعارف بمصر / ٧٨ .

٤٦ - معاهد التنصيص ٢/ ١١٠ .

٤٧ - السيوطي : شرح شواهد المفني ( دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٦ ) ١/ ١٣٤ ، والغضار : كان احدهم اذا خشي على نفسه علق عليه خرقة الخمر .

٤٨ - انظر مقدمة ديوان زهير / ٢٠ - ٤٤ . وكتاب احسان القصي : زهير بن ابي سلمى . . .

على الرغم من أن قضية الحرب والسلام أخذت القسط الأكبر من اهتمام الشاعر، فنظم فيها شعراً كثيراً مثلته قصائده المدحية، إلا أن شعره يحوي أيضاً أغراضاً أخرى كالرثاء والغزل والهجاء والفخر والحكمة . هذا بالإضافة إلى أن شعره يحوي عناصر مختلفة من معارف عصره ومعالمه ؛ فشعره مثلاً من أكثر الأشعار الجاهلية اهتماماً بالكتابة ، لقد كررها أكثر من مرة وبخاصة في مقدماته الطللية؛ مثال ذلك قوله (٤٩) :

لن الديار غشيتها بالفدند — كالوحي في حجر المسيل المخلد

وزهير في شعره يشغل بقضايا إنسانية بالغة الدقة والخطورة في مجتمع جاهلي بدائي كانت تسوده — إلى حد كبير — شريعة باغية قاسية ؛ لذا احتاجت من الشاعر قدراً كبيراً من التجرد والتفكير لوضعها وضماً مؤثراً . فالشاعر متألم جداً للأوضاع السيئة التي ينحدر إليها مجتمعه ؛ وقد تمثل تألمه هذا بصور شعرية توحى بأن طريق الخلاص هي السير مع حس السلام الذي بدأ يتخذ جانباً إيجابياً فاعلاً . ومع كل ما من شأنه ترسيخ قيم أو مثل عليا فوق الأرض . ومن هنا التقى كلام الشاعر نسي

... ( دار الفكر بدمشق ١٩٧٢ ) ١١٩ وقد عثرت على نص في خزانة الادب ٢ / ٣٢٤ يشير

إلى ديوان زهير وشروحه . قال البغدادي ( وديوان شعر زهير كبير وعليه شرحان ، وهما عندي والحمد لله والمثني ، أحدهما بخط مهمل الشهر الخطاط صاحب الخط المنسوب ) ولم يذكر في مخطوطات الديوان المكتشفة ما يشير إلى هذه النسخة .

دعوته الإصلاحية مع الخلق الإسلامي الذي جاء بعيد موته . قيل : أنشد  
عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله في هرم :

أثني عليك بما علمت وما أسلفت في النجدات من ذكر  
والستر دون الفاحشات ولا يلتصقك دون الخير من ستر

فقال عمر : ذلك رسول الله (ص). وكلام عمر هذا هو من نوع كلامه  
حين سأل بعض ولد هرم أن ينشده بعض مدح زهير في أبيه ، فلما أنشده  
ما طلب قال : إن كان ليحسن فيكم القول . قال : ونحن والله ان كنا لنحسن  
له العطاء ، فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم (٥١) .

ومن هنا قال عبد الملك بن مروان بما مر من مدح بما مدح زهير قال  
أبي حارثة من قوله :

على مكثريهم رزق من يعترتهم وعند المقلين السماحة والبسذل  
الأيامك أمور الناس (٥٢) . يعني الخلافة .

ان المعاني التي عاشت وقدرت هذا التقدير في العصور اللاحقة ، لعان  
انسانية كثيفة وان بدت بسيطة مكشوفة ؟ فلا عجب اذن ان تلتقي بعض  
معاني شعره مع بعض الآيات القرآنية الكريمة . لقد لاحظ بعضهم موضع  
التقاء قوله :

ومن هاب أسباب المنايا يفلنسه ولو رام أسباب السماء بسلم

مع فحوى الآية الكريمة « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج

٥٠ - الاغانى ١٠/٣٠٤ .

٥١ - المصدر السابق ١٠/٣٠٥ ويقال ان عمر قال ايضا ( ولكن الظل التي كساها أبوك  
هرما لم يبئها الدهر ) .

٥٢ - المصدر نفسه ١٠/٣٠٦ .

مشيدة (٥٣) «والاحظ التقاء قوله :

فان الحق مقطعه ثلاثٌ ؛ يمينٌ او نفازٌ او جلاءٌ

فذلكم مقاطع كل حـق ثلاث كلهن لكم شفاء (٥٤)

بالبعد الاجتماعي والانساني الذي عليه القول الالهي : « ولكم في القصاص حياة » . ولربما كان هذا وراء قول ابن قتيبة : « وكان زهير يتاله ويتعنف في شعره ، ويبدل شعره على ايمانه بالبعث » (٥٥) .

ويبدو ان اتجاهه الخلقى كان وراء تفضيل كثير من الناس له . لقد نُضِل على الشعراء لانه — كما قيل — : « كان ابعدهم من سخر ، واشدهم اجتنابا لحوشي الكلام (٥٦) » .

والواقع ان زهيراً كان شاعراً فذاً ، فلقد فهم بخبرته وذكائه قضايا الانسان والوجود ، وعبر عنها تعبيراً ادبياً اكسبها سمة البقاء ، وهذا ما جعله قائماً في عقول الناس على مر العصور .

وشاعريته اصيلة عريقة تمتد في جذورها وفروعها بشكل جعلها متميزة في تاريخ الشعر العربي القديم . قال ابن الاعرابي : « كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره ، كان ابوه شاعراً ، وهو شاعر ، وخاله شاعر ، واخته سلمى شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعران ، واخته الخنساء شاعرة (٥٧) » . وقد ذكر ايضا ان عقبة بن كعب بن زهير المعروف بالمضرب

---

٥٣ — ناصر الدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي ( دار المعارف بمصر ١٩٥٦ ) ٤٠٦ ، والاية في النساء / ٧٨ .

٥٤ — شرح ديوان زهير / ٧٥ . والاية من البقرة / ١٧٩ .

٥٥ — خزنة الابد / ٢ / ٣٣٣ .

٥٦ — المرزباني : الموشح ( دار نهضة مصر ١٩٦٥ ) ٩٥ .

٥٧ — شرح شواهد المفني / ١ / ١٣٣ ومعاهد التصحيح / ٢ / ١١٠ .

كان شاعرا ، وانه كان لعقبة هذا ابن يقال له العوام، وكان شاعرا —  
ايضا (٥٨) .

لقد اجتمعت لزهير عناصر وراثية في الشعر اعطته استعدادا فطريا  
لقوله ؛ ويبدو انه احسّ مثل هذا الاستعداد مبكرا ، فأخذ نفسه به وعوّل  
على تأصيله وتهذيبه حتى غدا شاعرا مذكورا . لقد وضعه ابن سلام في  
الطبقة الاولى، تاليا لامرئ القيس والنابغة (٥٩) .

اما ابو الفرج فقد ذكر ان الرواة لم يتفقوا على تفضيل أي من امرئ  
القيس او النابغة عليه ؛ قال : « هو احد الثلاثة المتقدمين على سائر  
الشعراء ، وانما اختلف في تقديم احد الثلاثة على صاحبيه ؛ فأما الثلاثة فلا  
اختلاف فيهم ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة الذبياني (٦٠) » .

وفي التراث النقدي ما يؤيد قول ابي الفرج ؛ فقد جاء في طبقات ابن  
سلام نفسه ان اهل النظر قالوا : « كان زهير احصنهم شعرا . . . واجمعهم  
لكثير من المعنى في قليل من المنطق (٦١) » .

وقد نسب صاحب خزانة الادب الى ثعلب تقديم زهير ، كما اورد  
محاورة بين جرير وابنه عكرمة مؤداها: ان جريرا كان يقدم زهيرا ويجعله  
اشعر الجاهليين (٦٢) . ومن كان يقدمه ايضا قدامة بن موسى الجمحي ،  
الذي كان — كما يقول ابن سلام — من اهل العلم (٦٣) . وكان كل من عمر

---

٥٨ — الاغانى ١٠/٢١٤ وخزانة الادب ٢/٢٢٢ .

٥٩ — طبقات فحول الشعراء / ٩٢ .

٦٠ — الاغانى ١٠/٢٨٨ .

٦١ — طبقات فحول الشعراء / ٥٢ والنعماني : خاص الخاص ( دار مكتبة الحياة ببيروت  
١٩٦٦ ) ٩٦ .

٦٢ — خزانة الادب ٢/٢٢٢ .

٦٣ — الاغانى ١٠/٢٨٩ .

ابن الخطاب ومعاوية يسميه بشاعر الشعراء او اشعر الشعراء (٦٤). وقد زعم حماد انه لم يدرك احدا من اهل العلم من قریش بفضل على زهير من الناس احدا في الشعراء لكنه يقول : غير ان قریشا قد اتفقوا على تفضيل زهير والنابغة معا (٦٥) . وكان ابو عمرو ابن العلاء يقول : « كان اوس فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخمله (٦٦) » . وسجل بعض النقاد القدامى احكاما نقدية توازن بين زهير وغيره على اساس الدوافع النفسية التي اشتهروا بها ، فقليل : « كان امرؤ القيس اشعر الناس اذا ركسب ، والنابغة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ، والاعشى اذا طرب (٦٧) » .

والنقد الحديث لا يأخذ بهذه الآراء المطلقة لانه يدرك اختلاف الشعر والشعراء من حال الى حال ؛ فالمسألة كلها ترتبط بقضايا دقيقة في الشاعر ذاته ، وفي الموضوع الذي يتناوله ، والجو العام الذي يقال فيه الشعر . ولكن تظل الاقوال التي فاضلت بين زهير وغيره على اساس من الضوابط النفسية خاصة اقرب الى الاحتمال والتقبل من تلك التي اعتمدت التعميم اسلوبا في احكامها .

وعلى مستوى الصنعة الشعرية يصادفنا الراي المنسوب الى عمر ابن الخطاب في تفضيل زهير حيث قال : « كان لا يعاظم في الكلام ، وكان يتجنب وحشي الشعر ، ولم يمدح احدا الا بما فيه (٦٨) » . لقد اعجب به لان شعره مستو ، وفصيح اللفظ ، كوناطق بالصدق الحقيقي عن مجريات الاحداث واوصاف الناس . ان هذا النقد — بالرغم من أن نظريات الشعر

---

٦٤ — شرح شواهد المفني ١/١٢١ .

٦٥ — شرح ديوان زهير / ٨٦ ، ٢٢٦ .

٦٦ — طبقات فحول الشعراء / ٨١ .

٦٧ — العسكري : كتاب الصناعتين ( عيسى البابي الطبى بالقاهرة ١٩٥٢ ) ٢٣ .

٦٨ — الاغاني ١/٢٨٩ ومعاهد التنصيص ٢/١٠٩ .

الحديثة قد تجاوزته بكثير — يظل نقدا يقدم اوليات اساسية في الحكم  
النقدي المعلن .

وقد لاحظ الاقدمون تأثر زهير في الصنعة بطريقة اوس بن حجر —  
وكان زهير راوية له — وهي قائمة على البروز الحسي، والاستقصاء للصور  
وتفصيلاتها (٦٩) . وعرف عن زهير أنه صاحب مذهب التحريك الشعري  
في العصر الجاهلي ، إذ به عدُّ واحدا من الذين اطلق عليهم الاصمعي «عبيد  
الشعر» . (٧٠) قيل إنه كان ينظم القصيدة في ليلة او شهر، ثم يتركها عنده  
عاما كاملا لا يذيعها في الناس إلا بعد ان يعاود فيها النظر مرات عديدة .  
ولهذا سميت قصائده بالحوليات او المقلدات والمنقحات (٧١) . وحتى نحكم  
حكما متقنا على عمل زهير هذا، لا بد لنا من الاجابة عن مسألة هامة في  
المعرفة النقدية : هل الشعر ابن الملكة الشعرية وحدها، ام ابن الصنعة  
الحاذقة فقط ، ام ابهما معا ؟

ان الاجابات العصرية لا تميل الى فصل الصنعة عن الموهبة ، وهي  
تعدهما اساسا متحدا لكل فن ناجح، وبهذا يكون زهير واحدا من الذين وعوا  
باكرا دورهم الشعري الريادي، لذلك جاء شعره ناضجا متقنا ، ولقد لاقى  
قدرا كبيرا من الاعجاب في عصره وبعد عصره . ان الاساس الفني لمذهبه  
اهتمامه كثيرا بالصور الكثيفة التي قادت الى خلق الترابط العضوي في  
القصيدة الواحدة، لانها تشيع معاني عميقة شديدة التشابك والترابط .

---

٦٩ — شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ( ط . دار المعارف بدمر الطبعة  
الرابعة / ٢٨ ) وما بعدها .

٧٠ — الشعر والشعراء / ١ / ٢٢ .

٧١ — الجاهظ : البيان والنبين ( عبد السلام هارون ١٩٢٨ ) ٩/٢ وما بعد التنصيص  
١١١/٢ وخزانة الادب ٢/٢٣٥ . وابن جنبي : الفصاحي ( ط . الهلال ١٩١٢ )  
٣٢٠/١ .

ان مثل هذه المعاني تؤدي بتفاعلها وتجاوبها وتجاذبها الى الكشف عن الرموز والايحاءات التي تؤلف الوحدة المعنوية الباطنية للتصيدة : فرصدنا لحركات النفس داخل القصيدة الواحدة يقودنا الى الوقوف على قضايا انسانية بعيدة بعدا جذريا عن الموضوعات الظاهرية التي نتحدث عنها . . وهذه هي القيمة المتوقعة لكل ترابط صوري كهذا الذي يشيعه زهير باتقان نادر .

بهذا تغدو الاقوال التي اتهمت معلقته كما اتهمت غيرها من المعلقات بالتفكك (٧٢) ، اقوالا قاصرة، عاجزة عن الرؤية الشمولية التي تعتمد اكتشاف الحقيقة من خلال حل العقد والتداخل الشعري العجيب .

ولكن الرواة والنقاد أخذوا على زهير عدة مأخذ في شعره، تنحصر في مجالات اللغة والسرقات والفن وغاياته بشكل عام :

ومن مأخذهم اللغوية استبشاعهم كلمة ( حقلد ) في بيته (٧٣) :

نَقِي نَقِي لَمْ يُكْتَرِ غَنِيمَةً      بِنَهْكَ ذِي الْقُرْبَى وَلَا بِحَقْلَدٍ

ومنها انكارهم عليه قوله ( رك ) في بيته :

ثم استمروا وقالوا إن موعدكم      ماءً بشرقي سلمى فيد أو ركك

لانه حكى بعض الاعراب انه قال : إنما هو « رك » (٧٤) . ولست أرى وجها لهذه المأخذ . ( حقلد ) كلمة عربية مستعملة قد تكون ثقيلة على اللسان، لكنها في موضعها في البيت ادت ما أراد الشاعر ؛ اما ( رك ) فنقلها

٧٢ - الموجز في الادب وتاريخه ١/ ١٨٥ .

٧٣ - كتاب الصناعين / ٣٠ والبيت في الديوان / ٢٣٤ والحقلد : الضيق البخل ، والسلي الخلق .

٧٤ - الموشح / ٦١ وحكى عن بعض الاعراب انه قال : إنما هو ( رك ) والبيت في الديوان / ١٦٧ .

هو الذي دفع الشاعر الى فك ادغامها . والشاعر — على اية حال — اطمأن على وضع كل كلمة في موضعها من شعره ، لذا فان اي مأخذ لا يكون بافراد الكلمة ومحاسبتها على جمالها او قبحها منعزلة ، وانما في موضعها من القصيدة، وهذا مبدا غير الذي حوكم على اساسه زهير كما هو واضح .

واما في نحل الشعر فقد روي ان الأصمعي كان « يرى أن ابیاتا من قصيدة زهير الميمية ( امن ام اوفى . . . ) ليست له، وانما هي لصرمة بسن انس الأنصاري (٧٥) » . واتهم أيضا بالاغارة على شعر غيره من الشعراء؛ فقد جاء على لسان ابي عبيدة قوله : كان قراد بن حنث من شعراء غطفان وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن ابي سلمى ادعى المقطوعة التي مطلعها :

إِنَّ الرِّزِيَّةَ لَا رِزِيَّةَ مِثْلَهَا      مَا تَبْتَغِي غُطْفَانَ يَوْمَ اضْلُتِ (٧٦)

والمقطوعة في ديوان الشاعر ، وقد ذكر انها في رثاء سنان بن ابي خارجة مع زيادة بيت على الابيات التي رواها ابو عبيدة وهو :

وَمُلَعْنِ ذَاقَ الْهَوَانَ مَدْمَعٍ      رَاخِيَتْ عُقْدَةً كَبَلَهُ فَاَنْطَلَتْ (٧٧)

ومع تقديم وتأخير في الابيات ، ثم مع اختلاف في رواية بعض الالفاظ والعبارات .

وهذا امر يرتد الى مسألة النحل والانتحال في الشعر الجاهلي . ومن الصعب ان يجزم الانسان فيها براى وتظل خاضعة للفرض والتخمين . على ان مما يضعف احتمالات كون الابيات لقراد ان احدا لم يقل بذلك سوى

---

٧٥ — مصادر الشعر الجاهلي ٢٢٨ عن كتاب المعمرين / ٦٦ . وهناك قصيدة اخرى منسوبة للأنصاري في ديوان زهير / ٢٨٤ .

٧٦ — المرزباتي / معجم الشعراء ( عيسى البابي الحلبي ١٩٦٠ ) ٢٠٥ .

٧٧ — شرح ديوان زهير / ٢٢٤ .

ابي عبدة، وان الابيات في الديوان مزيدة ومختلفة بعض الاختلاف، ومقرونة عند زهير بمناسبة ؛ ولم ترد اية اشارة من ثعلب ، شارح الديوان ، تشير الى اتهامها على غير عادته .

اما في مجال السرقة الشعرية فيذكر الرواة ان زهيرا اخذ ابياتا ممن سبقه او عاصره من الشعراء، من ذلك - مثلا - قول امرئ القيس (٧٨) :

فَلأَيًّا بِلأَيِّ ما حَمَلنا غلامنا على ظهر محبوبك السراة مُحَنَّبٌ  
اخذه زهير فقال :

فَلأَيًّا بِلأَيِّ ما حَمَلنا غلامنا على ظهر محبوبك ظمَاءٍ مفاصلُهُ  
والمسألة هنا ترتبط بمفهوم السرقات الشعرية قديما وحديثا ، لان هذا المفهوم ليس واحدا في العصرين؛ فبينما يعدّ النقد القديم التآثر والتأثر في الشعر سرقة معيبة، ينظر اليها النقد الحديث على انها طبيعية، بل ربما كانت عامل اغناء كبير في الشعر ؛ لان حصيلة هذا الفن تلاقح المشاعر والمواقف والافكار الانسانية . وهو لا يفترض السرقة في الشعر ابدا ، لانه يعتبر الشاعر مسؤولا عن كل حرف يستخدمه . وهو - على اية حال - لا ينظر الى الشعر نظرات جزئية تتوقف عند التقاء شاعرين عند كلمة او جملة؛ لان الشاعر الذي يصدر عن تجربة ذاتية حية لا بد ان يحدث شيئا ما فيما يتأثره، وذلك ليحوّله الى عالمه الخاص المفروض من المواقف الذاتية .

فزهير تصرّف بيت امرئ القيس تصرفا يبدو قليلا، لكنه اذا قرن الى السياق كله ونظر اليهما نظرة شاملة، يمكن ان يقال ان التجربة الكليسة المتكاملة في القصيدة هي التي فرضت مثل هذا التصرف ؛ عندها يفدو الشعر كله ملك زهير، يحاسب عليه ويحاكم به .

---

٧٨ - انظر هذين البيتين وغيرهما من الابيات مجبوعة في شرح ديوان زهير ١٥ - ١٧ المقدمة.

وأما في المجال الفني فقد أخذوا عليه اضافته (أحمر) الى (عاد) في

قوله :

فَتُنْتَجُّ لَكُمْ غُلْمَانٌ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ      كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعُ فَتُقَطِّمِ

قائلين : ( ان ثمود لا يقال لها عاد ، لان الله عز وجل انما نسب

تدارا الى ثمود ) « (٧٩) كما خطأوا قوله :

يُخْرِجُنَّ مِنْ شَرَبَاتٍ مِأْوَاهَا طَحْلٌ      عَلَى الْجُدُوعِ يَخْفَنُ الْغَمُّ وَالْغُرَقَا

قائلين : « ظن ان الضفادع يخرجن من الماء مخافة الفرق (٨٠) »

وهذا خلاف الواقع .

انهم — كما يبدو من تقديم لشعره هنا — لا يفرقون كثيرا بين الصدق

الحقيقي والصدق الفني . فالشاعر — فنيا — لا يتقيد بسرد الواقع كما

كان وانما كما يمكن ان يكون من جهته ؛ ومن هنا لا يعيب زهيرا ان وضع

(عاد) بدلا من (ثمود) لانهما في خياله ترمزان الى معنى ذهني واحد هو

الشر الرابض في الارض ؛ ومن هنا اصبحت الواحدة تعني الثانية عنده .

كما لا يعيبه أيضا ان خالف المفهوم السائد في تفسير خروج الضفادع

من الماء، لانه وهو ينظم القصيدة التي منها البيت، اراد هذا التفسير لحاجة

خاصة به . فالذي يجب ان يحاسب عليه الشاعر هو مدى ارتباط الجو

الذي يستحدثه بدوافعه ومواقفه ؛ اذ لا بأس حينئذ من تحويل الواقع او

استبداله بواقع جديد يخترعه خيال الشاعر وعواطفه . ان عدم وضوح

هذا المفهوم في اذهان كثير من النقاد الذين درسوا زهيرا هو الذي دفعهم

الى محاكمته على أساس محاكاة الواقع ، وبالمعنى الحرفي لهذه المحاكاة،

فأخطأوا في احكامهم النقدية عليه .

٧٩ — طبقات نحول الشعراء / ٧٣ والموشح / ٥٦ .

٨٠ — كتاب الصناعين / ٧٢ .

هذه صورة متكاملة لزهر الانسان وزهر الشاعر ، وهي صورة تحوي مضمونا واحدا هو « السمو » : فلقد كانت افكاره ومواقفه الاجتماعية تصدر عنه وتهدف الى انجازه على مستوى العصر كله، فبالسمو — كما عبر زهير في شعره مرارا — يعرف الانسان موقعه من الحـرب والسلام ، وبه ايضا يدرك ابعاد ايجابيته في تفاعله مع غيره ممن يؤلفون معه وحدة اسمها المجتمع المتكامل . وكان ايضا يطبق السمو في خلقه . <sup>وهو</sup> يروى انه كان يقول : ما انا بأشعر من النابغة . ( ٨١ ) ويروى ايضا انه كان محبوبا ومحترما ممن عرفه ( ٨٢ ) . كما كانت مناهجه في الابداع الفني تتصف بالسمو ايضا ، فاذا وعينا ان السمو الفني يعني النتيجة التي يتوصل اليها شاعر يجتهد في تعمق تجربته واتقان وسائله حتى تخرج، حين تخرج ، وهي صاعدة الى قمم الابداع، ومتجاوزة كل ما قد يسمها بالابتدال والسوقية ، ادركنا كم كان حظ زهير من السمو الفني عظيما .

ان احساسى بصفة السمو في شعره فكرا وفنا هو الذي دفعني لاطلاق لقب ( شاعر السمو ) عليه ؟ فزهير شاعر متميز باخلاصه لعصره واخلاصه لشعره ، لذا فهو ما زال بحاجة منا الى دراسة جديدة واعية هادفة تستقصي شعره وتستخرج منه كنوزه الثمينة .

د . عبد القادر الرباعي

---

٨١ — شرح ديوان زهير / ٢٢٦  
٨٢ — خزائن الادب / ٤ / ١٥٠ وذييل الامالي / ٢٣ وديوان كعب بن زهير / ٢٦